تأسيس القاهرة

والاحتفال بانقضاء ألف سنة عليه

لحضرة صاحب السعادة حافظ عفيفي باشا

للقاهرة المعزية ، عاصمة بلادنا المصرية ، تاريخٌ حافلٌ يحق لها ان تزهو به بين أعظم المدن والعواصم ، سواء في الشرق او في الغرب . فهي اليوم تبلغ الف عام كاملة من عمرها ، اذا احتسبنا هذا العمر من تاريخ انشائها ، وهو شهرُ شعبان سنة ٣٥٨ هجرية . وقلَّ ان نجد بين أمصار التاريخ العظيمة حاضرة كالقاهرة المعزية بقيت هذا العمر الطويل ، وهي ما تزال محتفظة بشبابها ونضرتها وبهائها . او حاضرة تضم مثل هذا التراث الأثري الباهر ، وهذه الثروة الفنية العظيمة التي تضمها مدينة القاهرة

ولم تكن القاهرة في خلال هذه الاحقاب الطويلة التي قطعتها ، عاصمة الديار المصرية وحدها . ولكنها كانت منذ قيامها تتمتع في العالم الاسلامي بمقام أدبي خاص . فقد بدأت حياتها مركزاً لخلافة اسلامية ، هي الخلافة الفاطمية . ثم كانت حاضرة لدول السلاطين المصرية الزاهرة . ولما انهار صرح الخلافة العباسية في بغداد على يد التتار في سنة ٦٥٦هـ (سنة ١٢٥٨م) تبوأت القاهرة زعامة الاسلام كله وغدت حاضرة العالم الاسلامي . وغدت بجامعها الازهر ومعاهدها ، ومدارسها الجليلة ، مركز التفكير الاسلامي والمدنية الاسلامية عصوراً وعصوراً

ومن بواعث الغبطة ان تعود مصر اليوم فتسترد مكانتها التاريخية القديمة بين الأمم الاسلامية الشقيقة وان تعود فتصل لتأدية رسالتها التاريخية والادبية والثقافية ، وان تعود القاهرة المعزية فتغدو بأزهرها وجامعها ومتاحفها ومعاهدها العلمية العديدة حاضرة الثقافة العربية والتفكير الاسلامي

وقد كان طبيعيًّا ان تستقبل مصر شعباً وحكومة بلوغ قاهرتها الف عام من عمرها بكثير من الاهتمام والتقدير ، وان تستعد للاحتفال بهذا العيد القومي الجليل احتفالاً يليق بعظمته ومنزلته التاريخية . وقد ألفت بالفعل لجنة حكومية لتعنى بوضع برنامج هذا الاحتفال . ولكن تأليفها جاء مع الأسف ، متأخراً عن أوانه ، مما اقتضى ان يصرف النظر عن احتساب عمر القاهرة الأنيق من تاريخ انشائها ، وهو العرف المتبع في مثل هذه المناسبات . ولو احتسبناه من ذلك التاريخ الذي مضى منذ ذلك شهر شعبان سنة ٣٥٨ هـ ، فان القاهرة تتم ألف عام من عمرها في

شعبان سنة ١٣٥٨ هـ الموافق لاكتوبر سنة ١٩٣٩ . ولكن اللجنة عدلت عن الاخذ بهذا التاريخ نظراً لضيق الوقت ، وحددت يناير سنة ١٩٤٣ موعداً للاحتفال بهذا العيد ، ليكون لديها متسعٌ من الوقت ، وليُتاح لها بذلك أن توفّق بين بعض الاعمال والمناسبات ، التي رأت أن يتكوّن منها برنامج الاحتفال

وهذا هو بالذات ما يجعلني أتحدّث منذ اليوم[1] في موضوع العيد الالفي . فأني اريد أن تتخذ فترة الاعوام الثلاثة الباقية بيننا وبين احتفالنا ، فرصةً للقيام ببعض الاعمال والاصلاحات الهامة التي سأتكلم عنها والتي يستغرق تنفيذها بعض الوقت . ولهذا أردت ان انبّه الأذهان منذ الآن الى وجوب الانتفاع بهذه الفترة للقيام بهذه الاصلاحات ، وان أوجّه قبل كل شيء نظر ولاة الامور الى العناية بهذه المسألة الخطيرة . واذا كان من دواعي الأسف أن تكون الحوادث الدولية الحاضرة قد شغلت الاذهان وصرفتها عن الاهتمام بكثير من المسائل والشئون الداخلية فاننا نرجو مع ذلك أن يبقى ولاة الامر على عنايتهم بالاستعداد لاحياء هذه الذكرى القومية الجليلة بكل ما وسعوا من جهد وبكل ما تسمح به الاحوال من الروعة والبهاء

على أني لست أقصد بذلك ان يتخذ عيد القاهرة الألفي مناسبةً لاقامة المواكب والزينات العظيمة دون غيرها . وان كان من الطبيعي ان يكون مناسبة لتنظيم طائفة من الاحتفالات والمظاهر القومية والاجتماعية الرائعة . والتي يجب مع هذا ان تحتفظ بطابع من الرزانة والوقار ، وان تُصان من كل افراق وتبذّل . ولكني أقصد بنوع خاص ان يكون هذا العيد مناسبة تثير عناية السلطات للاهتمام بأمر المدينة المُحتفى بعيدها ، وان تكون ذا أثر حقيقي ثابت في تجميلها وتحسين خططها وإحياء ما درس من آثارها

ويحسن بي بهذه المناسبة أن أشير قبل كل شيء الى مسألة هامة تتعلق بمصير العاصمة ومصير ثروتها الاثرية والفنية . فلقد طغت المباني الحديثة عليها في العهد الاخير طغياناً شديداً كاد يُفقدها كل صفة شرقية . ولو استمرّ الامر على ذلك عشرين عاماً اخرى ، لانمّحت القاهرة بفقد هذه الصبغة التاريخية الجليلة . وفقدت كل ما تبعثهُ عليها من سحر وجمال فنّي . وغدت مدينة غربية من الطراز الثالث او الرابع . ولم يعمل ولاة الامور الى الآن للأسف شيئاً لوقف هذا التيار الجارف ، فاذا لم يكن ثمة مناص من وقوع هذا الشر ، لارتفاع اثمان الأراضي ، وما تقتضيه المدينة الحديثة ورفاهة العيش ، فانهُ يجب على الاقل ان نعمل لمنع هذا الشر بقدر الامكان ، وذلك بأن توضع سياسة ثابتة لتخطيط المدينة ، وان يصدر تشريع عاجل ، يفرض القيود اللازمة على هذه المباني الحديثة ويحددُ مساحتها وارتفاعاتها في بعض المناطق ، التي

(١) ألقيت هذا الحديث التليفوني من محطة القاهرة مساء ٢٠ ديسمبر ١٩٣٩

تقتضي المحافظة على جمالها وطرازها هذا التحديد . وقد أعد بالفعل مشروع القانون الخاص بهذه المسألة منذ زمن غير قصير ، ولكنه أهمل في درج من أدراج بعض الوزارات . ويجب ان نعنى بنوع خاص بالمحافظة على الآثار الاسلامية التاريخية ومظهرها الفني وان نحرص بقدر الامكان على عدم تشويه الأحياء الأثرية ، بحجة شق الشوارع او توسيعها ، كما حدث مثلاً عند انشاء شارع الازهر ومازال نذكر الضجة التي أثارها بحق يومئذ هذا النوع من التخريب الاثري بين محبي الآثار الاسلامية والحريصين على سلامتها

ولاشك في ان عيد القاهرة الألفي فرصة طيبة للعمل على احياء معالم القاهرة وكنوزها الأثرية . ولعل اجدر هذه الآثار بالعناية هي آثار المدينة الفاطمية القديمة التي تمتد الاحتفاء بعيدها الألفي ، والتي ما زالت تمثل حتى الآن في قلب القاهرة بكل معالمها وحدودها القديمة . وفي مقدمة هذه الآثار السور الفاطمي الكبير الذي يمتد بين باب النصر وباب الفتوح ثم يمتد بعد ذلك غرباً حتى شارع الأمير فاروق ، وقد كان فيما مضى حد المدينة الفاطمية من الشمال. فهذا الاثر الضخم الذي لا يزال يحمل مسحة من روعته القديمة ، يكاد يختفي اليوم بين اكداس من الأبنية والخرائب الحقيرة التي تغمره فتشوه منظره وتخلع عليه مسحة من الزراية ، وتحجب قيمته الاثرية العظيمة . ولقد زرت هذا الأثر أخيراً برفقة السير روبرت كريج عضو لجنة حفظ الآثار العربية ، وهو من عشاق الآثار الاسلامية ، والأستاذ محمود أحمد مدير ادارة حفظ الآثار العربية ، الذي تدين له آثارنا الاسلامية بكثير من اعمال الاصلاح والصيانة القيمة ، ولا يسعني الآن أشير هنا الى الألم الذي شعرت به ، ويشعر به كل مصري حينما يرى هذا الأثر الفاطمي الجليل ، تحجبه المناظر الكريهة من كل صوب وحينما يرى ما يسود هذا الحي كله من مظاهر الشقاء والفقر مما يؤذي انظار الرواد ويصرفهم عن زيارته

ومن أغرب ما رأيت مجموعة من الخرائب المهجورة بجوار باب النصر من الجنوب الشرقي ورابور طحين بجواره من الشمال الغربي ، تلتصق مدخنته بالسور ذاته ، وكلاهما اي الخرائب والرابور ملك لوزارة الاوقاف ، وهي لا تحصل منها على ايراد مطلقاً ، ومع ذلك فهي تحتفظ بها وتشترك بذلك مع المشتركين في تشويه هذا الأثر النفيس

فهذه المناظر المؤلمة تحمل على كثير من الأسف ، والتفكير في مصير آثارنا ، وتحملني على ان اتمنى هذه الفرصة لأهيب بولاة الأمر أن يتداركوا هذه المسألة بحكمتهم ، وأن يبادروا بالعمل على احياء هذا الأثر الفاطمي العظيم ، وكشفه للعيان بازالة الأبنية والخرائب اللاصقة به ، منذ بدايته الى نهايته في باب النصر غرباً حتى شارع الأمير فاروق وهي مسافة لا تتجاوز الكيلومتر ، ويحسن ان تمهد الطريق مما يليه من الناحية البحرية حتى نهايته أعني الى شارع

الامير فاروق . ويجب ان تشمل عملية التطهير هذا الحيّ كلهُ فتزال المقابر القليلة المجاورة لباب النصر ، وجميع الأبنية والخرائب المحيطة بالسور من الجانبين ، ويغرس مكانها شريطان من الحدائق العامة ، يكون السور في وسطها . وبهذا تتحوّل هذه المنطقة الحربية الموحشة الى بسيط جميل أخضر يجلب الهواء والشمس والنور الى سكان هذه المنطقة المنحطة التي تشغل قسماً كبيراً من أحياء باب الفتوح والحسينية والخليج المصري ، والتي حرمت من الحدائق العامة ، ونكون بذلك قد عملنا أولاً على احياء هذا الأثر الفاطمي العظيم ، واظهاره للعيان في أروع مظاهره بما يتفق مع عظمة ماضيه ومنزلته الاثرية . وثانياً على تحقيق اصلاح اجتماعي وصحي ذي شأن ، فان هذه المنازل والخرائب العتيقة التي يسرها عشرات الالوف من السكان جميعها لا تصلح للسكن وهي على الضدّ من ذلك مواطن للامراض والجراثيم الخطرة التي يجب العمل على ابادتها . وهذه أعمال تدخل جميعها في صميم أي برنامج اصلاحي ، وهي مما يتضمنهُ برنامج الوزارة الحالية . ومن طيبتها أنهُ يمكن القيام بها في زمن الحرب . بل لقد أصبح من الواجب بعد ان وقفت جميع أعمال البناء وتعطل شأن الالوف من العمال ، ان تعمل الحكومة من جانبها شيئاً لتخفيف هذه الأزمة ، والقيام بهذه المشروعات الاصلاحية خير وسيلة لتحقيق هذه الغاية

وفي ظني ان هذا المشروع لا يقتضي كثيراً من النفقات اذا ذكرنا ان الحكومة تستطيع بعد نزع ملكية الأبنية المجاورة للسور ، ان تبيع الاراضي الزائدة عن الحاجة . ومن جهة أخرى فأمامي تقدير تقريبي لنفقات المشروع وضعهُ بعض الخبراء المختصين وهو لا يزيد على خمسة وعشرين الف جنيه . ومن الغريب ان مشروعاً كهذا قد بحث منذ سنة ١٩٣٠ ، وصدر به بالفعل مرسوم ملكي . ولكن لم تتخذ في سبيل تنفيذه الى الآن أية خطوة عملية . فالآن وقد اقترب عيد القاهرة الألفي ، فان تنفيذه يبدو ضرورة عاجلة . ومن الواجب أن يبدأ العمل فيه منذ الآن ، حتى اذا حلّ موعد الاحتفال الالفي تحقق ما نقصده للاثر الفاطمي ، والاحياء المحيطة به ، من إحياء وتجميل واصلاح

ولما كان جامع الحاكم بأمر الله ، وهو أقدم مساجد القاهرة المعزية بعد الجامع الازهر يقع بجوار السور الفاطمي مما يلي باب الفتوح ، وقد غدا اليوم اطلالاً دارسة ، ولم تبق منهُ سوى مئذنته وبعض جدرانه ، فانهُ يجب أيضاً ان تتدارك هذه البقية الباقية منهُ بالاصلاح ، قبل ان يأتي عليها الخراب التام

واذا كانت الآثار الفاطمية ، وهي آثار الدولة المصرية العظيمة التي قامت بانشاء القاهرة وشيدت صروح عظمتها المستقبلة ، هي أول ما يجب العناية به ، لمناسبة الاحتفال بعيد القاهرة الألفي ، فانهُ يجب ان تكون هذه المناسبة أيضاً فرصة للعناية بتراث القاهرة الأثري بوجه عام .

ولا شك في ان لجنة حفظ الآثار العربية وغيرها من السلطات ذات الشأن تقوم في هذا السبيل بجهود مشكورة . ولكنها في الواقع دون ما يجب للعمل على صون هذا التراث الفني الباهر ، وذلك لقلة الاموال المخصصة لهذه الغاية فهي لا تتجاوز في الواقع عشرين الف جنيه في السنة . ولذا رأينا بعض المشروعات الاصلاحية يبدأ بها ثم تقف في منتصف الطريق . فجامع ابن طولون مثلاً وهو من أجل آثار العاصمة ، فقد عني بكشف واجهته البحرية ، وبعض واجهته البحرية الغربية ، ولكن أهمل صحنهُ ومئارتهُ كما أهملت واجهتهُ القبلية والشرقية ، وما زال يحيط به من هذين الجانبين طائفة من الأبنية والخرائب التي يجب إزالتها وكشف الجوانب التي تحجبها على نحو ما تمَّ بالواجهة البحرية ، حتى يبدو هذا الجامع الفخم بكامل روعته وجلاله

وجامع السلطان حسن وهو أيضاً من أعظم مساجد القاهرة ، مع ما بذل للعناية به واصلاحه وإحاطته من الناحية الغربية برقعة من الخضرة قد ترك مهملاً من الناحية القبلية ، وتركت بعض اطلاله من هذه الناحية على حالها . هذا فضلاً عن انهُ يوجد في الشارع المحاذي له من الناحية القبلية أثر نفيس قد أهمل اهمالاً تامًّا ، وهو بقايا قصر بَشْتَاك الذي يرجع الى القرن الخامس عشر الميلادي ، والذي توجد منهُ واجهتهُ البحرية كلها ، وفيها بوابته الكبرى وبعض جدرانه الداخلية . فهذا الاثر الذي يواجه الجامع من الناحية القبلية قد ترك اطلالاً دارسة ، وحولت واجهته الأثرية الى صفٍّ من الحوانيت التي يحتلها بعض الحدادين وصغار الصنَّاع ، مما يعرض هذه البقايا الاثرية الى الزوال ، ويسيء على واجهة الجامع القبلية منظراً كئيباً . فهذا ايضاً مما تجب المبادرة الى اصلاحه واحيائه

هذه أمثلة قليلة ظاهرة نضربها أمثلة على ما يجب عمله لابراز مدينة القاهرة وصروحها الأثرية النفيسة ، في المظهر الجدير بماضيها العظيم من جمال المنظر وحسن الذوق والروعة الفنية ، وهناك أمثلة عديدة أخرى تحتاج الى مثل هذه العناية ولا يتسع المقام لذكرها

وخلاصة القول أن عيد القاهرة الألفي يجب ان يكون مناسبة طيبة لمضاعفة الجهود في سبيل اصلاح العاصمة وتجديدها وتجميلها ، ألاَّ نضنَّ في هذا السبيل بكلِّ ما يمكن انفاقه من المال . وان تتعاون هذه الحركة الاصلاحية ، سائر النواحي والمرافق ، الأثرية والعمرانية والصحية ، بحيث يبدو هذا العيد القومي فاتحة عهد جديد حقًّا في تقدم العاصمة وتجميلها . ويكون له الأثر الفعَّال في تحقيق هذه الغاية : فلا تنقضي اعوام حتى تطهَّر العاصمة من هذه الركائم والخرائب والانقاض التي تتخلل كثيراً من مبانيها واحيائها الأثرية كما يجب ان تطهر في نفس الوقت من آثار التسوس والتشرد وغيرها من المناظر الاجتماعية المؤذية . وبذلك تبدو عاصمة البلاد في حلة أكثر جمالاً ورواء

واذا كنا نرجو ان يكون البرنامج الذي تضعهُ اللجنة المختصة لاحياء عيد القاهرة الالفي محققاً لاعظم مظاهر الروعة والبهجة فانا نرجو من جهة اخرى ان يعنى هذا البرنامج بالناحية التاريخية والادبية ، فيتضمن العمل على نشر أهم الآثار التاريخية المتعلقة بتاريخ القاهرة ومعالمها وآثارها في طبعات شعبية حديثة وان يكون في مقدمة هذه الآثار كتاب المقريزي في الخطط ومن الأسف ان هذا الأثر الجليل لم تصدر منه الى اليوم طبعة شعبية محققة أو خلاصة مختارة تقربه الى جمهور المتعلمين وطلبة المدارس مع انهُ من أنفس الآثار في تاريخ مصر الاسلامية وتاريخ القاهرة في العصور الوسطى . كذلك يجب ان يعنى بوضع تاريخ الفي جامع لمدينة القاهرة ومعالمها الاثرية ، وان توضع لها خارطات اثرية تمثلها في عصورها المختلفة بالاعتماد على الوثائق التاريخية المحققة وهو ما لم نعنَ به حتى الآن . فليس لدينا في الواقع أية خارطات أثرية وثيقة لمصر الاسلامية ومدينة القاهرة ، سوى مجموعة الخارطات والرسوم التي وضعها علماء الحملة الفرنسية في فاتحة القرن الماضي

***

هذا ونلخص هذه الخواطر والملاحظات التي أثارها في نفسي ، حديث عيد القاهرة الالفي والتي تخطر بالبال لكل مصري يعتز بعظمة الحاضرة المصرية ، وتاريخها الحافل ويرى في القاهرة العزيزة مثلاً حيًّا لعبقرية مصر الاسلامية ، تلقى من لجنة العيد الالفي ومن ولاة الأمر كل ما تستحق من العناية والاهتمام

بل إني لتفائل من هذه الناحية . فان ما اعربتُ عنه من الاماني الاصلاحية بالنسبة لمدينة القاهرة وكنوزها الاثرية ، يتفق تمام الاتفاق مع البرنامج الانشائي والاصلاح الذي وضعته وزارة رفعة علي ماهر باشا الحالية ووعدت بالعمل على تحقيقه . واعمال الاصلاح الاجتماعي مثل انشاء المساكن الصحية ، وازالة المساكن الضارة وغرس الحدائق في الاحياء الفقيرة المكتظة ، والعمل على تجميل العاصمة والعناية بالآثار الاسلامية وغيرها مما اشرت اليه ، جميعها داخلة في هذا البرنامج ولست اشك في ان الوزارة ستبذل كل ما في وسعها للعمل على تحقيقه

ولا يسعني في الختام ، الا ان أنوه في هذا المقام بما كان للمغفور لهُ الملك فؤاد الاول في ذلك كله من فضل سابغ ، وما كان لهُ بالاخص من مآثر جليلة في العناية بتجميل العاصمة واصلاح الآثار الاسلامية . وان ما يبدو اليوم من عناية صاحب الجلالة الملك فاروق — حفظه الله — بهذه النهضة الاصلاحية ورعايتها والاخذ بيدها ، لما يبشرنا بأن البلاد ستشهد في ظل جلالته عهد اصلاح شامل ، وان القاهرة العزيزة والآثار الاسلامية ستشهد عهداً زاهراً من التجديد والاحياء